غـــــــوته

لمناسبة مرور مائة عام على وفاته

بقلم الاستاذ محمد يحيى الهاشمى
مدرس اللغة العربية بجامعة برلين

غوته ، وهل علمت من هو غوته ؟ هو ذلك الشاعر وتلك العبقرية الخالدة ، هو ذلك الذى تحتفل بذكرى مائة عام على وفاته الأمة الالمانية بأسرها ، ومن الحق لتلك الشخصية أن تقام لها هذه الذكرى ؛ لذلك رأيت من واجبى أن أبث هذه الذكرى الى قراء «المعرفة».

ملك غوته على مشاعرى يوم قرأت كتابه المسمى القبضة (فاوست) ، ذلك الكتاب الذى استهوى ألباب الخافقين ، فوجدت فيه من لطيف المعانى ورقة الأسلوب ما أخذ بمجامع قلبى. والسبب فى تأثير كلماته التأثير العظيم ، أنه لم يكن شاعرا فحسب ، يكتب ما يشعر به فى حينه ، بل كان شاعراً يكتب بعد أن يدقق ويخوض فى عمق الحقيقة ، وهذه الصفات ـ صفات الشعور بعد التدقيق العسيق ـ تكاد لاتجدها فى غيره من الشعراء ، ولذلك جاءت كلماته بليغة ، وحكمته عميقة ، وتأثيره قويا ، فاذا بالغت الامة الالمانية فى الاحتفال بهذا الشاعر الكبير فى شهر مارس من هذه السنة ، فلاشك أنها تود أن ترفع هذه المنارة المضيئة إلى مكانة عالية ، لتكون لهم مثلا أعلى فى الحياة.

عرفت غوته من ثلاث وجوه : عرفته كشاعر غربى حر التفكير ، يغرد مع الطيور ، ويبتسم للطبيعة ، يلج فى قلب تلك الفتاة التى رأت خيبة فى الحياة فقعدت منكوبة حزينة ، يلعب مع الاطفال ، يدخل الى عروش الملوك ، يزور قاعات الاحتفالات العريقة ، ثم يخرج إلى فضاء الطبيعة ، ينظر إلى لمعان النجم فى السماء ، وإلى ضياء القمر الفضى ، يتجول فى الغابات الكثيفة ، ويستريح فى سفح جبل على ضفة نهر ، ينظر إلى لون الأزهار اليانعة ، ونظرته إلى الزهر ليست كنظرة الذى يشم الزهرة ثم يرميها ويمشى فى سبيله ، يذهب إلى الاعياد ، وكل مايراه يترك فى نفسه أثرا شعريا ، فاسمع شيئا من أنشودته فى نزهة عيد الفصح : (١)

نظر الربيع إلى الجليد فذابا ... ومشى يبشر بالربيع هضابا
وكذا الشتاء الشيخ سار بجيشه ... نحو الجبال ليطمئن مآبا
الشمس تأنف أن ترى من غيرها ... نورا لذلك كل ثلج ذابا
ارجع بطرفك من مكانك ناظرا ... نحو المدينة منظرا خلابا
تتزاحم الاقدام فى ابوابها الظلـــماء ترغب أن تجوز البابا
ومن المدينة قضها وقضيضها ... بعثوا يحيون الضيا أسرابا
انظر الى تلك الجموع تسنمت ... بين المروج وفى الحقول شعابا

(١) من ترجمة الدكتور محمد ابى غنيمة.

ومن القرى إنى لأسمع ضجة يبدو بها فرح القرى جذابا
أنا هاهنا (إنسان) فى أمنيتى وهنا أحب إقامتى احقابا

ومهما رأى من شقاء الحياة وعذابها، فانه يبقى سعيدا مغتبطا ، ولقد أدرك ماهية الألم ووصفه بقلمه وصفا صادقا، قلما يصفه لنا غيره من الكتاب ؛ ولكننا نجده بعد ذلك مبتسما ، فدوما تجده يرقص للحياة يترنم بأناشيد الحب والشباب .

عرفته كمستشرق اطلع على آداب الشرق من عربية وفارسية ، فنطق بالشعر عنها فى ديوانه الشهير بالديوان الشرقى والغربى ، وسبب تسميته ديوانه بذلك، لأنه يود أن يظهر مشاعر غربى عن الشعر الشرقى ، وكان ينظر الى الشعر الشرقى كمثل أعلى لا يمكن الوصول اليه، ووجد هذا الشاعر فى الادب الشرقى قوة منعشة جديدة ، كما رأى أن أساسات الاسلام توافق كل مزاج حيث يقول :

« من الحمق أن يتعصب المرء لرأيه، إذا كان الاسلام هو التسليم لله، فبالاسلام نحيا ونعيش كلنا » وقد قال عن القرآن ، «سوف يبقى تأثير هذا الكتاب خالدا » ، وبعد أن اطلع على العالمين وجد صحة ذلك القول ـ رب المشرق ورب المغرب ـ فأنشد يقول :

« إله الشرق ، إله الغرب ، أقطار الشمال ، أقطار الجنوب، تسكن تحت يديه بسلام»

وقد أصبح صدى جمال اللغات الشرقية عظيما بتأثيره، إلى أن صارت يضرب بها المثل .

عرفته كبحاثة فى الطبيعة، ولم أعرف شخصا آخر فى الغرب على شاكلته ، أراد والده أن يدرس الحقوق فزار الجامعة لهذا الغرض، فلم ينجح؛ ولكنه درس شتى العلوم وتوغل فيها حسب زمانه ، درس الحكمة الطبيعية وخاصه انعكاسات النور ، وله نظريات خاصة فى الألوان لا تزال حتى يومنا هذا مجال بحث بين العلماء ؛ لقد رأى غوته أن الحياة الظاهرية تتجلى أمامنا بالالوان، فاللون عنده يؤثر على الحواس والمشاعر ، وضرب لذلك مثلا: إذا أردنا أن نعرف تأثير لون من الألوان على حساسيتنا يجب أن نلون حجرة بذلك اللون ونمكث فيها ، فنرى بذلك تأثير كل لون على حدة، وبهذا خالف غوته نظرية نيوتون الانكليزى بقوله: إن اللون مادة أثيرية قائمة بذاتها غير متعلقة بالنور ، فى الوقت الذى يعتقد نيوتون أن اللون ناشىء عن تحليل النور ، ولقد جمع غوته كل ما يتعلق فى هذا الباب من المواد العلمية القديمة والحديثة وتوغل فى آراء اليونان ، ومر مرورا سطحيا على نظريات العرب (١) وكان يعتقد أن كل شيء فى الحياة يجب أن يكون موجبا أو سالبا، وكذلك الالوان .

وقد لعبت نظرية الالوان فى اوروبا بعده دورا عظيما ، فاشتغل البحاثة بروغش باشا فى استنباط نظرية الالوان عن قدماء المصريين؛ ولكن بحثه لم يكن تاما، والمتحف المصرى فى برلين يسعى جهده فى أن يتمم هذا الفرع .

بحث غوته فى مختلف العلوم الطبيعية ، فبحث فى النباتات وأنواعها وتراكيبها وجميع افعالها

(١) من أشهر المشتغلين فى نظريات الالوان والنور من العرب : الفيلسوف والطبيب ابن الهيثم المتوفى عام ٤٣٠ هـ .

الحياتية وفصائلها، درس الاحجار وتراكيبها وعلة حدوثها، وتوغل بعد ذلك فى فن طبقات الارض، فدرس الجبال والهضاب والزلازل والبراكين، واكتشف حجرا جديدا بعد اكتشاف خواصه لايزال حتى يومنا هذا يسمى على اسمه (غوتيت)؛ راقب الحوادث الطبيعية مراقبة صادقة، فكان يريد أن ينفذ إلى الحقيقة نفوذا عميقا، وقد أراد أن يدرس أيضا فن الكيمياء لتكون عنده إحاطة فى ماهية المادة؛ ولم يكن فن الكيمياء يدرس فى عهده على حدة، بل كان يدرس مع الطب والعلوم الطبيعية. ولم ينظر هذا المدقق الى ماعرفه الاقدمون من فن الكيمياء كأساطير الاولين، بل كان يريد أن يعرف الحقيقة فى كل شىء ؛ وكذلك درس الانسان، فقد كان يعتقد أنه لنفهم ماهية الانسان يجب فهم تركيب جسمه قبل كل شىء ، لأننا لايمكننا أن نفهم الشىء المعنوى قبل أن نفهم المادة التى تنبىء عن ذلك المعنى العظيم ، فدرس تركيب جسم الانسان من الهيكل العظمى إلى تركيب العضلات والاعصاب ، وأنفق فى ذلك الكثير من التضحية ؛ ولكنه ظل فى تتبعاته العلمية شاعرا لا مثيل له بين العلماء ... يفتح العلماء أدمغتهم ليفهموا العالم وينظموا وينسقوا ويروا العلة والمعلول؛ ولكنهم يغلقون قلوبهم ، يعتقد غوته بأن الانسان اذا أراد أن يمشى على العقل الصرف يصل فى النهاية إلى اللاشىء ؛ وانتقد العلماء فى كتابه فاوست بقوله :

« وبذلك أعرف السادة العلماء ، أن الشىء الذى لايلمسونه يبعد عنهم أميالا ، والشىء الذى لا يفهمونه يغيب عنهم تماما ، والذى لايستطيعون أن يحسبوه يزعمون أنه غير موجود ، وما لا يستطيعون وزنه يظنون أن لاوزن له ، والعملة التى لم يسكوها يظنون أنها لاتروج » .

فليس من شىء عند هذه الشخصية الكبيرة يدعى غريبا ، لقد دقق أنواع الحياة من طبيعة وانسان ، وكان الجسر بين الشرق والغرب ؛ وبين العقل والقلب ـ ادرك الحياة بعقله وأحبها من كل قلبه ، ولم تكن تدقيقاته الطبيعة مخلة بالاعتقاد بتلك القوة التى سببت الحياة، ويعتقد أنها فوق كل مسمى: « سمه كيف احببت، سمه حبا، قلبا، إلها، ليس عندى له اسم، فكل مشاعرى له »

أثبت لنا النابغة غوته ، أن المدقق والجامع للتجارب لايصل إلى الانكار والالحاد إذا كان قلبه السليم يصحبه فى كل مكان؛ فغوته ليس ذلك الشاعر الذى يخدعنا، بل يصور لنا الحياة تصويرا صادقا، وما أحوج العالم الى رجل عظيم أوتى حكمة وعلما، يفتش عن الجمال ويعلمنا بذلك كيف نصير سعداء .

وهكذا تحتفل كل المانيا بهذا الرجل الكبير، ويحضر رئيس الجمهورية بالذات إلى «وايمار» المدينة التى عاش بها ذلك الشاعر .

ليت إقامة مائة عام على وفاة الشاعر غوته، تكون لنا عبرة عظيمة لتقدير أشخاصنا التقدير اللازم ، فان عندنا من النوابغ الكثير، بعثوا فينا روح حياة جديدة ؛ ولكن نصيبهم منا كان الجفاء والاهمال ؟

محمد يحيى الهاشمى